المحاضرة الأولى: مدخل إلى الفنون النثرية الحديثة.

تمهيد:

يرى كثير من النقاد أنه للمرة الأولى في تاريخ الأدب العربي يحرز النثر في العصر الحديث قصب السبق على الشعر، بعد أن ظل خلال عهود مديدة يجاريه حينا، ويتخلف عنه أحيانا أخرى، ومرد ذلك إلى أثار بعض مظاهر التكنولوجيا الحديثة من مثل الطباعة والصحافة والحاسوب... وغيرها على شكل الكتابات كلها من المقالة إلى القصة إلى الرواية إلى المسرحية، بحيث أضفت هذه الظروف وتلك المؤثرات خصائص فنية متطورة على هذه الفنون النثرية الأدبية.

أولا - وسائل النهضة الحديثة.

مع حلول القرن التاسع عشر ولاسيما بعد حملة نابليون على مصر سنة 1789م واتصال اللبنانيين بالغرب، أخذ العالم العربي يستيقظ من سباته ويدعو إلى إجراء إصلاحات مختلفة، كما ظهرت حركات وتنظيمات تدعو إلى الحرية والانفصال، وكان لهذه النهضة مجموعة من العوامل التي أسهمت في نشوئها أهمها ما يأتي:

1- البعثات العلمية: بدأت في مصر* في عهد محمد علي لتقوية جيشه وبناء الدولة الحديثة من خلال اطلاع النبهاء من المصريين على وسائل التقدم العلمي، والدراسة في مدارس أوروبا ونقل علومها إلى مصر، واستمر ذلك إلى عهد الخديوي عباس، واستأنف بشكل أوسع في عهد الخديوي إسماعيل.

وفي العراق بدأ العمل بإرسال البعثات بعد استقلال العراق عام 1921، وسارت معظم الدول العربية منذ النصف الثاني من القرن العشرين على هذا النهج، وساهموا في التقدم العلمي لبلدانهم،[i] ولقد كان لهذه البعثات العلمية دور بارز في النهضة الحديثة، حيث اطلع الموفدون على آداب الغرب، وعقدوا المقارنات بين ما لديهم وما لدى الغرب، مما أغنى المكتبة العربية بالكنوز الغربية عن طريق الترجمة* في مجال القصة والرواية والمسرحية.

2- الطباعة: أنشئت أول مطبعة بالأحرف العربية عام 1514م في إيطاليا بأمر من البابا يوليوس الثاني، ودشنها البابا ليون العاشر، وكانت خاصة بطباعة الكتب الدينية والمقدسة ليرسلها المبشرون إلى المشرق، ومع حملة نابليون دخلت الطباعة إلى الوطن العربي وخرجت من الاحتكار الديني إلى الطباعة العلمية وكانت مصر أولى البلاد العربية التي حظيت بهذا الشرف.

ولقد اهتم حكام مصر بالطباعة، فبعد رحيل الفرنسيين الذين أسسوا مطبعة بولاق، أعاد محمد علي باشا فتحها باسم المطبعة الأميرية، وعنيت بطباعة الكتب والأوراق الرسمية والصحف[ii]، وبعد ذلك التاريخ توالى ظهور المطابع في الوطن العربي، ومن أشهر المطابع العربية مطبعة "الجوائب" لأحمد فارس الشدياق طبع فيها طائفة كبيرة من الكتب العربية.

وفي العراق أسست البعثات التبشيرية في الموصل مطبعة الدومنيكان لغرض طبع كتب دينية مسيحية، كما أسس مدحت باشا سنة 1879م مطبعة لطبع أول جريدة في العراق باسم "الزوراء"[iii] وبالتالي فإن للمطابع دور

كبير في نشر المخطوطات العربية القديمة وطبع الكتب الحديثة، وتسهيل وصولها للقارئ، وكذا طبع الصحف والمجلات والنشرات الحكومية.

ويمكن أن نلخص دور الطباعة في النهضة العربية، وتطوير فنون الأدب الشعرية والنثرية، وإحداث تغيير في حال الوطن العربي ثقافيا وأدبيا، في النقاط الآتية:[iv]

أ- إحياء الآداب القديمة من شعر متين ونثر رائق، وكتب.

ب- تسهيل طباعة المخطوط وتداوله.

ج- السرعة في الحصول على أعداد كبيرة من النسخ في وقت قصير.

د- حسن الأداء والخط الذي يسهل فهم ما هو مكتوب.

هـ- إحياء التراث القديم من خلال طباعة أمات الكتب نحو: الأغاني- العقد الفريد....

و- تهيئة الكتب المدرسية والمقررات العلمية.

ز- تغذية حركة التأليف.

ح- تهذيب اللسان وصقل الأسلوب ومران المواهب على المعارضة للقديم والمحاكاة والاختراع والتجديد.

3- المدارس والتعليم: تعد المدارس بنية التقدم العلمي والاجتماعي، وخلو الدول العربية من المدارس بمفهومها الحديث، كان من أسباب التخلف الذي أصابها، وكان التعليم يجري في الكتاتيب بطريقة مقتصرة على العلوم الدينية فقط، ويعد نابليون بعد الاحتلال الفرنسي لمصر أول من أنشأ مدارس حديثة ثم تبعه محمد علي*، واهتم الخذيوي إسماعيل بالمدارس أيضا*.

أما الدول الأخرى والتي كانت خاضعة للسيطرة العثمانية، فقد بدأت الدولة العثمانية أواخر القرن التاسع عشر بفتح مدارس محددة جدا في مراكز الولايات والمدن الكبيرة باللغة التركية إضافة إلى المدارس الموجودة في العاصمة "أستانة"[v]، ثم انتشرت المدارس في البلدان العربية الأخرى بعد حصولهم على الاستقلال وأصبحت مصر والعراق قطبي الدراسة الجامعية في الوطن العربي قبل النصف الثاني من القرن العشرين. ولقد تنافس الأعيان والمبشرون في إنشاء المدارس التي يهدف كل منها إلى هدف معين، فهناك لجلب المنفعة المادية*، ومنها للتبشير الديني*، وكان للمدارس دور هام في النهضة الحديثة تمثل في تخريج الرواد الذين حملوا لواء النهضة الأدبية والفكرية فيما بعد.

4- الترجمة والتأثر بالأدب الغربي: كان تأثير الترجمة في النثر العربي أكبر منه في الشعر، ويمكن تلخيص دور الترجمة في النهضة العربية الحديثة فيما يأتي:[vi]

أ- التخفيف من أساليب السجع والزخرف اللفظي واكتساب تعابير جديدة.

ب- اقتراض مصطلحات أدخلت إلى العربية عن طريق التعريب والتحوير.

ج- نشوء فكرة مقابلة اللغة العربية باللغات الأوروبية من حيث القواعد والأساليب.

د- ظهور فنون أدبية جديدة كالمقالة والقصة القصيرة.

هـ- ترجمة الكتب العلمية والفكرية والفلسفية... وغيرها، فقد ترجم رفاعة الطهطاوي القانون الفرنسي، وعني خليل مطران بترجمة معظم مسرحيات شكسبير عن الفرنسية، كما عني سليم البستاني بترجمة إلياذة هوميروس.

و- وهناك دور عام للترجمة يتمثل في فتح آفاق جديدة أمام الأديب العربي حيث تأثر بالمذاهب الكبرى كالرومانسية والرمزية... الخ.

5- الصحافة: أصدر الفرنسيون في مصر صحيفتين باللغة الفرنسية ونشرة باللغة العربية اسمها "التنبيه"، ثم أصدر محمد علي جريدة "الوقائع المصرية"، وبعدها توالى صدور الصحف مثل:اليعسوب" و"وادي النيل" وأسبوعية اسمها "وحدة الأفكار" ومجلة علمية أدبية باسم "روضة المدارس"، ثم أفاد نزوح السوريين إلى مصر الصحافة كثيرا، حيث نشطت على أيديهم فأصدروا جديدة "الأهرام" و"المقتطف" و"المحروسة" و"المقطم" و"هلال"... وغيرها.

وأما في لبنان فقد ساهمت البعثات التبشيرية منذ القرن التاسع عشر في إصدار الصحف والمجلات، وإطلاع اللبنانيين على آداب الغرب والامتزاج معهم أنتج صحفا كثيرة مثل "حديقة الأخبار" و"الجنان"، إضافة إلى الجريدة الرسمية التي أصدرها داود باشا باسم "لبنان"،[vii] ومن ثم توالت صدو ر الصحف والمجلات لتتحول لبنان بعد الاستقلال إلى مركز ثقافي كبير للطباعة والنشر، وكذلك الحال في سوريا والعراق وباقي الدول الأخرى، حيث نهضت بعض المجلات بأدوار تنويرية، مكنت النخبة من الصمود أمام الغزو الثقافي.

ثانيا- مظاهر تطور النثر العربي الحديث.

كانت الكتابة قبل عصر النهضة تسير وفق أسلوب مقامات الحريري في الاهتمام بالشكل والصنعة والبديع والقياس، وكان للصحافة الدور الحيوي في إبعاد من الزخرفة والجناس والحشو والميل إلى السهولة والجهد البسيط من القراءة، بسبب مخاطبتها كل طبقات المجتمع وحاجتها إلى فهم القارئ كما يقرؤه ويعيه وعيا صحيحا ويتفهم ما يعرض من المشاكل لمعايشتها لها في المجتمع والحياة.

لقد أصبح الأسلوب يتنوع تبعا للغرض الذي يقصد به، ونسجوا على منوال ماترجموه من القصص والروايات مع الحفاظ على صفات اللغة وخصائصها وجرت هذه التطورات بصورة تدريجية بمرور الزمن، وكان للقديم مريدوه، وللحديث أتباعه، ولعل التطور الحاصل في النثر العربي الحديث وموضوعاته كان في النقاط الآتية:

1- اللغة:

أخذت اللغة تبتعد تدريجيا عن التكلف والتصنع والتعقيد والاعتناء بالزخارف على حساب المعنى والفكر فأصبحت تميل إلى السهولة والوضوح، حيث أصبح الأدباء يهتمون بالمضمون وكيفية توصيل المعاني والأفكار إلى القراء، والكاتب يكتب ليصور تجربة نفسية أو يقول شيئا محددا، كما حاول بعضهم الجمع بين العناية بالشكل والمضمون[viii]، مثل ما فعل المنفلوطي والرافعي والزيات والعقاد ونجيب محفوظ... الخ، ولعل التطور في اللغة جاء بعد الصراع بين المحافظين والمجددين وقناعات كلا منها.

2- الموضوعات:

لقد أصبح الأدب يكتب طبقات لطبقات الأمة على اختلاف درجاتها دون الحاجة إلى الكتابة إلى الولاة والأمراء، فالكاتب يكتب كما يريد وكما يحس وكما يدركه بصره، يحاول إرضاء أمته ويكتب بشعوره وذوقه، فصار الأدب يعنى بتصوير ميول الشعب السياسية وغير السياسية، ويتناول شؤون العامة، لذلك غلبت على كتاباتهم موضوعات منها:[ix]

أ- الدفاع عن الأمة الإسلامية والدعوة لتحريرها والمطالبة بحقوقها والتنديد بالحكام المستبدين.

ب- الأخذ بنظام الشورى في الحكم، ومحاربة الاستعمار وإثارة الحمية الوطنية في النفوس.

ج- السعي إلى إصلاح المفاسد الاجتماعية.

د- تحرير المرأة ومساواتها بالرجل في الحقوق والفرص والتعليم.

ولقد لخص "جرجي زيدان" تطورات النثر العربي الحديث بعد عصر النهضة الأدبية في النقاط الآتية:

أ- سلامة العبارة وسهولتها بحيث لا يحس القارئ بجهد في قراءتها.

ب- تجنب الألفاظ المهجورة والعبارات المسجوعة إلا ما يجيء عفوا ولا يثقل على السمع.

ج- تقصير العبارة وتحريرها من التنميق والحشو بحيث يكون اللفظ على قدر المعنى.

د-ترتيب الموضوع ترتيبا منطقيا في حلقات متناسقة.

هـ- تقسيم الموضوعات إلى أبواب وفصول، وتصدير كل فصل بلفظ أو عبارة تدل على موضوعه، خاصة في البحوث والتأليف.

و- الموضوعات الطويلة تكون بحاجة إلى مقدمة وخلاصة ونتائج إضافة إلى المتن الذي يكون جوهر الموضوع.

ز- تطابق العنوان مع متن الكتاب أو البحث، مع إعطاء الحرية لكتاب المقالات والروايات والقصص في اختيار عناوينهم لغرض جذب القارئ ولفت انتباهه[x].

ولقد تنوعت أغراض النثر العربي في مطلع القرن العشرين، حيث تناولت مشكلات الحياة ومظاهرها ونزعاتها المختلفة، فكان هناك النثر الفني الذي يتجلى فيه أسلوب الكاتب وحسن ألفاظه بما يقتضي الموقف والمعنى، حتى يخرج الكلام مؤثرا في النفوس والآذان، والنثر الاجتماعي الذي يعالج الأمور المتعلقة بالمجتمع، وأسلوبه صحيح العبارة، بعيد عن الزخرف اللفظي، مدعم بالحجج والبراهين لأجل الإقناع.

يضاف إلى ما سبق النثر السياسي وهو متعلق بما يكتب في الصحف والمجلات من موضوعات متعلقة بالسلطة والإدارة والحرية، أو الدفاع عن الشعوب المظلومة والدعوى إلى التحرر عن طريق إثارة الحمية الوطنية، والنثر اللغوي الذي يشمل الدراسات اللغوية وفقهها... وغير ذلك، إضافة إلى النثر العلمي الذي ينقل الكاتب من خلاله المعلومات المتعلقة بالعلوم الطبيعية المختلفة كالفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك... الخ، أو يكون نثرا علميا في موضوعات إنسانية مساعدة كالقانون والتاريخ والاقتصاد والفلسفة... وغيرها.